# يــوم حُنيــن[1]

## المسلمون بين الهزيمة والنصر

كان دُرَيد بن الصِّمَّةِ ذا عِلْمٍ في الحرب، وصاحبَ رَأي في أساليب القتال، خَبَّ[2] فيها ووَضع[3]، وَشَبَّ واكتهل، وهو وإن كان اليوم قد أصبح شيخاً متهدِّماً، وعجوزاً فَانياً، ليس لقومه من بني جُشَم فيه من عَوْن، ولا عليه من مَعَوَّل، فإنه ما زال فَيْصَلاً في الأحكام، وَمَرْجِعاً في المشكلات.

قال لقومه ـ وقد حملوه في شِجَارِه[4]، وقادُوه بزِمام جَمَله: بأيِّ وَادٍ أنْتُم؟ قالوا له: نحنُ بأوْطاس. قال: نِعْمَ مَجَالُ الخيلِ، لا حَزْن ضَرِس[5]، ولا سَهْل دَهِس[6]، ولكن مالي أسْمَعُ رُغَاء البعير، وَنُهَاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعَار الشاء؟

قالوا: لقد ساق مالكُ بن عوفٍ الناسَ للحرب، وحشد وراءهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال دُرَيد: دلُّوني عليه، فوالله ما أراه إلا دَبَرِيّ[7] الرَّأي؛ أفِيلَ[8] الفِكْرَة؛ أهكذا تَكُونُ الحرب؟ وأمسكَ غلامُهُ بخطام جَمَله حتى وقف به على مَالك.

قال دُرَيد: يا مالك، لقد أصبحتَ بَعْدِي رئيسَ القوم، وزعيم الجماعة، فحدّثني عن هذا الحَشْد.

---

(١) حنين: موضع قريب من مكة، وقيل هو وادٍ قبل الطائف.
(٢) خَبَّ فلان في الأمر: أسرع.
(٣) وضع وضعاً: أسرع في سيره.
(٤) الشجار: الهودج الصغير.
(٥) ضرس: صعب، يقال ضرس فلان: صعب خُلقه.
(٦) الدّهس: المكان اللين ليس برمل ولا تراب ولا طين.
(٧) الدبري: الذي يجيء أخيراً بعد فوات الحاجة.
(٨) أفيل الفكرة: ضعيف الفكرة.

قال مالك: هؤلاء قومي وقومك، دفعتُ بهم إلى لقاء محمد، لقد علمتُ أنه قد دخل مكة في جيش لم تَرَ العربُ مثلَه، ولم يلق فيها صادًّا ولا رادًّا، ولم يصادِفْ عقَبَة ولا عثرَة، فذلَّتْ له قريش، ولم تَعُدْ لهم بَعْدُ في مكة كلمةٌ... وإنه ليُوشك إن لم نَغْزُه أنْ يَغزُوَنا... وما يبعد ـ إن لم نستعدّ له ـ أن تذلَّ له هَوَازِن[١]، وتخضع نَصْر وَجُشم، وَتَدِين ثَقِيف، ويصبح محمدٌ ملك العرب جميعاً... ولكنني ـ كما ترى ـ أعددتُ له قبل أن يُعِدَّ لنا، وأزمعت المسير إليه قبل أنْ يسير إلينا.

قال دُرَيد: هؤلاء الرجال، وهؤلاء الفرسان، ولكن ما هذا الذي أسمعه من رُغَاء البعير، ونُهاقِ الحمير، وبكاء الصغير، ويُعَار الشاء؟

قال مالك ـ وَحَسِبَ أنه طَبَّق من الرأي المَفْصِل[٢]، وأصاب شاكِلَة الصَّوَاب: لقد خشيت هزيمةَ القوم، وهم قِلَّةٌ بجانب أصحاب محمد، ولهذا سُقْتُ وراءهم أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتِلُوا، ولعلهم بهذا يكونون أصدقَ لقاءً، وأثبت أقداماً.

فهزَّ دُرَيد رأسه، وقال: رَاعِي ضَأنٍ والله! وهل يردّ المنهزمُ شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رَجل بسيفه وَرُمْحِه، وإن كانت عليك فضحت أهلك ومالَك. يا مالِك، إنك لم تصنع بتقديم البَيْضة[٣]: بيضة هَوَازن إلى نُحُورِ الخيل شيئاً... ارفَعْهُم إلى متمنَّع بلادهم، وعُلْيا قومهم، ثم الْقَ الصُّباة على متُون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك أَلْفَاك ذلك وقد أحرزْتَ أهلك ومالك.

وقال مالك: يا دُرَيد، لقد كَبِرْتَ في السن، وكبر علمك؛ فَدَعْها لمن يعرفها، واترك من سيخوض غِمَارها ويدبِّرُ خطتها.

ثم عاد إلى القوم، وقال: يا معشر هَوَازن، لتطيعنني أو لأَتَّكِئَنَّ على سيفي هذا فيخرج من ظهري. قال زعماء القوم وعُرفاؤهم: دُونَك يا مالك وما تُريد.

وطار الخبر إلى رسول الله ﷺ في مكَّة، وهو يتهيَّأ للعودة إلى المدينة، أن مالك بن

---

(١) هوازن من قبائل العرب.
(٢) يقال حكم فاصل: ماضي قاطع، وهنا بمعنى سداد الرأي.
(٣) بيضة القوم: حوزتهم وحِماهم.

عوف قد حشد هَوازِن، واستنفر ثَـقِيفاً، ودعا إليه نَـصْراً وجُشم، وأنه يُوشك أن يشتبك مع المؤمنين في قتال. . .

فدعا رسول الله ﷺ المسلمين ألا يُلقوا سلاحَهم، وألاّ يُريحوا أبدانَهم، حتى يلقَوْا مالكاً؛ فلعلَّ يومهم آخرُ يوم لغزو العرب، وشوكتهم آخرُ شَوْكَةٍ في المشركين.

فاستجابوا لله وللرسول في جيش لم يهيَّأ لهم من قبل: عشرة آلاف ممن قدموا مع الرسول في المدينة، وألفان ممن دَانَ يوم الفَتْح؛ إنه لعدد يدعو إلى الزَّهْو ويدعو إلى الإعجاب. أين الرسولُ الآن وهو في قوم من المسلمين كعديد الْحَصَى، منه يوم أن خرج من مكة تحت جُنْح الظلام مطلوباً، لا عَوْنَ له ولا ناصر؟ وأين عديد المسلمين اليوم من عديدهم يوم بَدْر ويوم أُحُد ويوم الخندق؟ إنه جيش غرّ قائلهم فقال: إنهم لا يُغْلَبُونَ اليوم من قِلّة.

ولكن ما خَـطَرُ الكثرة إذا لم تؤيد بنصر الله؟ وأين هذا الجيش الذي يضمُّ صفْوَان بن أمية على شِرْكِه، وأبا سفيان والأزْلَام[1] في كِنَانته، وكَلَـدَة بن حَنْـبَل وَقَـتْل رسول الله ﷺ ضالّته؟ أين هذا اليوم من يوم بَدْر، وما في المسلمين إلا مؤمن قويّ الإيمان، مجاهد صادق في الجهاد! إنها لكثرةٌ لم تبعَثْ إلا غُرُوراً، ولم تُهيىء لهم إلا عجباً وخُـيَلاء.

* * *

وخرج المسلمون في عَماية الصُّبْح، وانحدروا بجموعهم إلى وادي حُنَين كما ينحدرُ السيلُ إلى الحَدُور، وما راعهم إلا المشركون قد سبقوهم إليه، وكمنوا في شِعَابه، واختبئوا وراء أحْنَائه وَمَضَايقه، وظهروا عليهم فجأة!

فإذا كثرةُ المسلمين ما خرجوا إلا طامعين، ولا ذهبوا إلا متردّدين، يخورُ عُودُهُم، وَتَنخب[2] قلوبهم، وينشمِرُون منهزمين، ويرجعون متقهقرين، ثم يقع الذُّعر في سائر الجيش، وَيَغْزُو الرعْبُ قلوبَ المسلمين.

---

(١) أزلام جمع زلم: وهو السهم الذي لا ريش عليه.

(٢) تنخب قلوبهم: يجبنون ويخافون.

وينكشف القَتام[١] عن رسول الله مُنْحَازاً إلى ذات اليمين، راكباً بغلته البيضاء وهو يَصِيح: **«أيْنَ أيها الناس؟ هلمّوا إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد اللّه»**، ولكن لا شيء غير قومٍ مَـذْعورين، وَفلُولٍ منهزمين.

ويتلفّت الرسول فلا يلقى إلا أبا بكر، وعمر، وعَلِيًّا، والعباس، وقليلاً من خاصَّته وأهل بيته، وأبو سفيان يُـبْرِز مكنونَ حِقْده، ويعلن ما بين ألفاف صدره ويقول: إنَّ هزيمتهم لا تنتهي إلا إلى البحر، ويصيحُ كَلَدَة بن حَنْبَل: الآن قد بطل السِّحْرُ. ثم يعود الرسول فيدعو العباس ويأمره أن يهتف بالأنصار، وكان العباس فارعاً بادناً، صيِّتاً جَهِير الصوت؛ فنادى: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة[٢]، هذا رسول الله يدعوكم، ويستنصر بكمُ على عدوّكُم، وإذا بصوته يشقُّ الصدور، وَيَصِلُ إلى قرارات النفوس، ويجيب الأنصارُ هاتفين: لبَّيْك يا رسول الله، لبَّيْك...

وإذا كان الله قد بلغ بالمسلمين ما أراد من أن يُرِيهم عاقبَة غُرُورهم، ومقدار كثرتهم، وخطأهم في تعبئة جيوشهم، فإنه عاد فثبّتَ أقدامَهم، وربَطَ على قلوبهم، وأنزل سكينَـتَه عليهم، وأمَـدَّهم بجنود لم يَرَوْها؛ فانقلبت الهزيمةُ إلى نصر، ووَلّت هَوازِن وأحلافُها، تاركةً للمسلمين أسلابها وغنائمها.

---

(١) القتام: الغبار الأسود.

(٢) سَمُرة: ضرب من شجر الطَّلح.

# الثلاثة الذين خُلِفُوا

المسلمون في عُسْرة من المال، وضيق من العيش، ولَفْح شديد من الحرّ، ولكنهم كانوا يَعْقِدُون آمالهم بيوم قريب، يَجْنُونَ فيه الثمر، ويحصدونَ الزرع، ويروِّحُون عن نفوسهم بِفَرَج مُقْبِل، وخيرٍ آتٍ.

وبينما هم يَرْجُونَ ذلك الأمل، ويترصَّدُون هذا اليسر وهم أَشَدُّ ما يكُونون رغبةً في البناء، وَأَزْهدُ ما يُرَوْنَ ميلاً عن السفر، إذا برسول الله ﷺ يدعوهم للجهادِ، ويُؤْذِنُ فيهم بالنفير العام ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] ومن استطاع منكم الإنفاقَ عن سعَةٍ وفضل فَلْيُنْفِق، ومن استطاعَ أن يحمِلَ غيرَه فليَحْمِلْ، واعلموا أنَّ وجهتنَا غَزْوُ الرُّوم، فلا يتخلف أَحَدٌ منكم ما استطاع إلى الجهاد سبيلاً.

أقبل المسلمونَ بعضهم على بعض يتساءلون: ما بالُ رسول الله ﷺ يدعونا للجهادِ في وَقْتِ الحرِّ ولَفْح الهاجرة[2]، وقبْل أن نجني الثمار، ونحصدَ الزَّرْع؟!

ثم ما باله يَجْرِي اليومَ في الجهاد عَلَى غير عادة مألوفة، ويسلك طريقاً غيرَ معروفة، فيعلن الجهةَ التي يقصدها، والقومَ الذي سيغزوهم، والعهدُ به يُخْفي ولا يُصَرِّح، ويُكني ولا يُفصِح؟!

ولكنهم ما علموا أن رسول الله ﷺ يتهيَّأ ليَصُدَّ بني الأصفر الذين أعَدُّوا جموعهم، وحَشَدُوا جيوشهم لغزو المسلمين، وهم أقْوَى ما يكُونون عُدَّةً وعَدَداً، وأنه قد آثر إعلامَهُم وإيذانهم، ليتهيَّئُوا لسفرٍ بعيد وشُقَّةٍ طويلة، حتى استطابت نفوسهم للجهاد واستعدوا للبَلاَء.

* * *

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ٤١.

(٢) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

ودعوةٌ للجهاد في عُسْرَةٍ من المال، وعُسْرَة في الإنفاق، وعُسْرَةٍ في الظَّهر، تتلقاها النفوسُ بحسب ما قُدِّرَ لها من الهداية والتوفيق، وبمقدار ما خالطها من الإيمان واليقين؛ فالنفوس الفيَّاضةُ بالتقوى، الطامحةُ إلى الجنة، المتطلِّعةُ إلى رضوان الله، لاَ تُبَالي الجهادَ صَيْفاً أو شتاءً، حرًّا أو قَرًّا، وإنما هي كلمة يُلقيهَا الرسول، فإذا أمْوَالهم وأنْفُسُهم بين يديه، وطاعتُهم منتهيةٌ إليه؛ ذلك لأنهم علِمُوا أنه لا يصيبهم ظَمَأ ولا نَصَبَ ولا مَخْمَصَةٌ[١] في سبيل الله، ولا يطئون موطِئاً يغيظُ الكُفارَ، ولا ينَالُونَ من عدو نَيْلاً إلاّ كُتِبَ لهم به عمل صالح، ولاَ يُنْفِقُونَ نفقةً صغيرة ولا كبيرة، ولا يَقْطَعُونَ وادياً إلاّ كُتِبَ لهم، ليجزيهم الله أحسنَ ما كانوا يعملون.

وأما أصحابُ النفوس المترددة بين الإيمان والكفر، والمُذَبْذَبَةِ بين الشكِّ واليقين، فإنهم ما يسمعون بكلمة الجهاد، ولا يَرَوْنَ قوماً يتهيَّئُونَ للغزو، حتى يُعَظِّمُوا الشقَّة، ويكبروا النفقة، ويُرْجِفوا بسوء العاقبة والمصير.

فما دعا رسول الله ﷺ إلى التجهز إلى تَبُوك[٢]، حتى تطوّعَ المسلمون بأموالهم وأنفسهم، وَظَهر منافقون حاولوا أن يخَذِّلوا المسلمين فلم ينجحوا وَيُثنوهم عن عزمهم فلم يُفْلِحُوا.

وَمَاجَتِ[٣] الصحراءُ بالغزاة وَالمجاهدين، مبْتهجين مُؤَمِّلين. ولكنَّ أربعة لم ينتَظِمُوا في الصفوف، وَلم يأخذوا مكانهم بين الجنود، فكانوا موضع العجَبِ والسؤال.. إذ كانوا ذَوِي غنى وَيَسَار، وَإيمَانٍ وَإيثَارٍ، أبو خَيْثَمَة أخو بني سالم بن عوف، وكعب بن مالك أخو بني سلمة، وَمرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وَهلال بن مُرة أخُو بني وَاقف.

أما أبو خَيْثَمَة فإنهُ ذهب إلى أهْله، بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً في يوم حارّ، فوجد امرأتَيْهِ في عَرِيشَيْنِ لهما في حائطه قد رَشّتْ كلُّ وَاحِدَةٍ منهما عَرِيشها، وَبَرَّدَتْ له فيه ماءً، وَهَيَّأت طعاماً.

---

(١) مخمصة: اسم بمعنى الجاعة.

(٢) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام.

(٣) ماج: اضطرب، ماج البحر؛ ارتفع ماؤه واضطرب.

فلما دخَلَ وَجدَ شراباً بارداً، ولحماً غَريضاً[١]. تحت ظلٍّ وَارِف، وَنسيم بَليلٍ عَليلٍ، وامرأتين تتهيآنِ لخدمتِه وإسعادِه.. فتذكَّر رسول الله ﷺ وصحبَه في غـزوهم وجهادهم، وَشُـقّتهم وَبَـلائهم. وهم الآن قد يبحثون عن الماء فلا يجدونه، وعن الطعام فلا يظفَـرُونَ به..

ألاَ ما أبْعَد ما بينه وبينهم! وما أظهر الفرقَ بين حاله وحالهم! ثم أعلن الحربَ على نفسه وَالكَيْدِ لهواه.

وقال: رسولُ الله في الضحِّ[٢] والريح، وأبو خَيْثَمة في ظلّ بارد، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسناء، وهو في ماله مُقِيم؟ ما هذا بالنَّصَف[٣].

ثم قال لامرأتيه: والله لا أدخُل عَرِيشَ واحدةٍ منكما حتى ألحقَ برسول الله.. وَهَيَّأ راحلتَه وطعامه، ولحق بالنبي عليه الصلاة والسلام.

أما الثلاثة: كعب، ومرارة، وهلال، فقد قعدت بهم هِمَّتهم في أول أمرهم فلم يَذْهَبوا؛ ثم عادوا فاستشعروا الندمَ، وَأحَسُّوا ما تورَّطوا فيه، فهمُّوا باللِّحاق به، ولكن ثَنَاهم الخجل، وصَرَفهم التردد...

وتفارَطت الأيام، وأمعن رسول الله ﷺ في الغزْوِ، فلم يجدوا للحاق به سبيلاً...

وأظلتهُمْ بالمدينة ليال نابغِيَّات[٤] وساعاتٌ نحسات؛ يخَرجون نهَارَهم يَحُوسُون خِلالها، ويَرُوحُون ويغْدُون بين لابتَيْهَا[٥]، ويتلفَّتُونَ فلا يرون إلا رجلاً مَغْمُوصاً[٦] عليه بالنفاق والرياء، أو ممن عَـذَرَهم الله من الضعفاء؛ فتـتصاعد أشجانهم، وَتـتحدَّر

---

(١) الغريض: الطري.
(٢) الضِّح: الشمس.
(٣) النَّصف: الإنصاف.
(٤) ليلة نابغية: مثل في الهم والأرق، وأصله أن النابغة قال في وصف ليلة حين غضب النعمان عليه:

فبـت كـأنـي سـاورتنـي ضئيلـة من الرقش من أنيابها السم ناقع

(٥) اللابتان: تثنية لابة وهي الحرة، وحرة واقم إحدى حرتي المدينة.
(٦) غمص عليه: عاب عليه.

شؤونهم[١] إذ لم يكونوا منافقين وَلا مُرائين، ولا مستضعفين وَلاَ مَعْذورين، وَلم يكونوا أقلَّ حُبًّا في الجهاد ممن سبقهم، وَلاَ أرْغَب في الموت في سبيل الله ممن تخلفوا عنهم..

ولكن هكذا لعبت بهم الأقدار، وصنعت صُرُوف الحدَثانِ، وكانوا كلما اقتربت أيامُ عودة الرسول عليه الصلاة والسلام ضاقت عليهم نفوسهم، وكثر هَمُّهم، وأُقِصَّت مضاجعهم، فكيف يَلْقوْنه؟ وماذا يعتذرُونَ به؛ وهم ما بَرِحُوا في صحة أبدانهم، وَبَسْطَةِ أرْزَاقهم، وَرَفاهية عيشهم، وَصِدق إيمانهم؟

وعاد رسول الله ﷺ من جهاده، وذهب إلى المسجد كعادته يصلي ركعتين، ثم يستقبل الناس...

وجاءه قومٌ مُخلَّفُونَ أخَذُوا يبسطونَ له المعاذير، وينتحلون الأسباب، وَيُقسمونَ بالله جَهْدَ أيمانهم، فقَبِلَ علانيتهم، وبايعهم، وَوَكَلَ إلى الله سرائرهم؛ ثم أقبَل كعبٌ يتعثَّرُ في مِشْيته، ويضطربُ من فَعْلَته، فتبسَّم إليه رسولُ الله تبسم المُغْضب، ثم قال: «**ما خلّفك؟ ألم تكنْ قد ابتعْتَ ظَهْرك؟**».

قال: بَلى يا رسولُ الله لو جلستُ عند غيرك من أهْلِ الدنيا لرأيت أني سأخْرُجُ من سُخطهِ بعَذْرٍ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلاً، ولكني والله لقد علمتُ أني لئن حدّثتكَ حديثاً فيه كذبٌ ترضى به عني لَيوشِكَنَّ الله أنْ يُسْخطكَ عَلَيَّ، ولئن حدثتك حديث صِدْقٍ تَجِدُ[٢] عَلَيَّ فيه، إني لأرْجو عفوَ الله... والله ما كان لي من عُذْرٍ.. والله ما كُنتُ أقوى ولاَ أيسَرَ مني حين تخلّفْتُ عنك... فقال رسولُ الله ﷺ: «**أمَّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضي الله فيك**».

وجاء مرارةُ، وجاء هلال، فتحَدَّثاً بمثل ما تحدَّث به كعب، وتركهما عليه الصلاة والسلام لقضاء الله وقدَرِه، كما ترك كعباً لقضاء الله وقدَره.

* * *

ونهى عليه الصلاة والسلام عن كلامهم أو الاختلاط بهم، حتى يَفْصِلَ الله في

(١) شؤون العين: مجاريها الدمعية.
(٢) وجد عليه: غضب.

أمرهم: يُعذِّبهم إن شاء أو يتوبُ عليهم... ومرَّت عليهم بعد ذلك أيامٌ تَقَسْمَتْهم فيها الهموم، وجالُوا في أوْدِية الغُمُوم، وَلَقُوا من جَفْوَةِ رسولِ الله جهداً وَبَلاَءً، ومن عُزلة أصحابه عَمتاً[١] وعناء، أمَّا مرارة بن الربيع، وهلال بن مرَّة، فإنهما قد استكَانا إلى بيتهما يَبْكيان ويَنْتَحِبان، انتظاراً لقضاء الله.

أما كعب فقد كان شاباً يخرجُ إلى الأسواق، ويضطرب فيما يضطرب فيه الناس، ويشهدُ الصلاة، ويَغْشى الطُّرُقات،، ولكن لا يكلِّمُهُ أحَدٌ، ولا ينظر إليه أحدٌ، ويُقْبِلُ على رسول الله ﷺ بعد أن يَنْفَلِتَ من الصلاة فيُلْقي عليه السلامَ ولا يدري من اضطرابه: أتَوَجّه إليه أمْ أعْرَضَ، رَدَّ عليهِ أو سَكَت؟!

وضاق به الأمر، واشتدت به جفْوَةُ الناس، فذهبَ إلى أبي قَتَادَة ـ وكان ابن عمه وَأَحَبَّ الناس إليه ـ وتَسَوَّرَ عليه جدارَ حائطه وسلّمَ عليه، فلم يردَّ السلام، فقال: يا أبا قتادة، أنشدكَ الله، هل تعلمني أحِبُّ الله ورسوله؟ فسكتَ، فعاد مرة ثانية، فقال أبو قتادة: الله ورسوله أعلم! ففاضت عيناهُ وتولى.

ومضى يوماً في الطريق زائغَ البصر، موزَّع الفِكْر، وإذا بِنَبَطيّ[٢] من أنباطِ أهل الشام. ممن قدم بالطعامَ يَبِيعه في المدينة يقول: أينَ كعب؟ فطفقَ الناس يشيرون إليه، فدفع إليه كتاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّان ملفوفاً في حرير ففتحه فإذا فيه: أما بعد فقد بلغني أن صاحبكَ قد جفَاكَ، ولم يجعلكَ الله بدارِ هَوَان ولا مَضْيَعَة.. فالحق بنا نُوَاسِكَ...

ولما قرأ هذه الرسالة بكى وَأعْوَلَ[٣]: إن كان كعب قد هان أمرُهُ وانحط قَدْره، وأصبح ممن يُطْمَعُ في دينه، وَيُرْجى تنصُّرُه؟! ثم أخذ الرسالة، ودفع بها إلى التَّنُّور.

وانقضت أربعونَ يوماً لم يتلقَّ النبيُّ في هؤلاء شيئاً من الوحي، ولم يستطع أنْ يفصلَ من أمْرهم بشيء؛ فأرسل إليهم أن اعتزلوا أهْلَكم حتى يقضي الله بالأمر فيكم...

أما هلال فقد دَلَفت[٤] امرأته إلى النبي؛ فقالت: يا رسولَ الله، إنْ هلالاً شيخٌ

---

(١) عمت فلاناً: قهره.
(٢) الأنباط: شعب سامي كانت له دولة في شمالي الجزيرة العربية.
(٣) عَوَّل: رفع صوته بالبكاء والصياح.
(٤) دلف إليه: أقبل عليه.

ضائع، ليس له خادم، فهل تكْرَهُ أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يَقْرَبك» قالت: إنه والله ما به مِنْ حركة إلى شيء، وإنه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى اليوم.

وأما كعب فإنه لما جاءه رسولُ النبيِّ يأمُرُهُ أن يعتزلَ امرأته قال: أطلَقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تَقْرَبها. فقال له بعضُ أهله: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذِنَ لامرأة هلال أن تخدمه؟ فقال: والله لا أستأذنُ فيها رسول الله ﷺ، وما يُدْرِيني ماذا يقول رسولُ الله وأنا رجل شابٌّ؟! ثم سَرَّحها.

* * *

وظَلَّ أمرهم معلقاً، والحديثُ معهم محظوراً، حتى انقضت عليهم خمسونَ ليلة، وما صلّى بعدها رسولُ الله صلاةَ الصبح حتى أطرقَ برأسه، وغاب بروحِه عمن حوله، ثم أقبل على صحبة مُتَهَلِّلَ الوجهِ منشرحَ الصدر، وأعلن فيهم أن الله قَبِلَ توبةَ كعب ومرارة وهلال، فاذهبُوا إليهم مهنئِينَ مبشِّرِينَ.

فخفَّ الناس إليهم مُسْرِعِين، بعضهم على فَرَس يركُض، وبعضهم فوق جبل يَصِيح.. وَوَافى البشيرُ كَعباً، فنزع له ثَوْبيهِ خِلْعَة، وما كانَ يملك غيرهما؛ واستعار ثوباً، وجرى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فألفَاهُ جالساً وحوله الناسُ في المسجد، فقال: «أبشِرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك». ثم أقبل هلال، وأقبل مرارة فهنّأهما وتلا عليهم جميعاً: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1].

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ١١٧ و١١٨.

# مَسجد الضّرار

لفَّ الظلامُ المدينةَ بردائِه، واشتملها بسكونه وهَدْأته، وأوحش الطريقُ، وسكنت الدُّورُ، وأسلم الناس إلى نوم عَمِيق، ولكن داراً ما زال أهلُهَا في يَقظة وحذَر، وَهَمٍّ وَقلَق، احتمع أهلوها يبثُّون شكواهم، وَيَنْشُرُون مكنونَ همومهم، وقد أمِنُوا على الظلام مَنْ يراهم، أو يسمع سِرَّهم وَنَجْوَاهم.

قال مُعتب بن قُشير ـ يشكو بثَّه لمن دَلَف إليه من المنافقين، ممَّن ذهب مَذْهَبه من الكَيْد والأذى، وَمَنْ رجع مَرْجِعِه من الحسرة والإخفاق، وَمَنْ لبس قِناعة من المُدَاهنة والنفاق ـ: أيّ هَمٍّ ذلك الذي يَسْرِي في أحشائي؟ وأيّ نَارٍ من الغَيْظِ تلك التي تشتعل بين جوانحي وَضلُوعي؟ إنني والله كلما لمحتُ في طريقي هذا المكانَ الذي تهيَّأ لبني عَمْرو بن عوف، ودعَوْه مسجد قُبَاء، وزعموا أنّ محمداً قد وضع لهم أساسَهُ، وأقام قواعِدَه، أُغضي طَرْفِي على القَذَى، وأحْني ضلُوعي على الأسى! كلُّ من في الدينة يهتفُ الآن ببني عمرو بن عوف، ويتحدّث عن مسجد قُبَاء؛ ما نحن وبني عمرو! وأيّ قدم يَفْرعوننا[1] فيها؟ ونحن وإياهم أبناء عُمُومة وأغصانُ نَبْعة؟ لستُ أكْتُمكُم ذاتَ نفسي، وما تحتويه لفائفُ صَدْرِي؛ إن الحسد ليَمْلأُ أعطافي، والغَيْظ ليتسعَّر في نفسي، ولستُ أدري دواءً لما أحَسُّ، وعلاجاً لما أشْعُر به، إلاّ أنْ أرى مسجدهم مقوَّضاً، ومجدهم دَاثراً، وَرَسْمَهم عافياً؛ ولكن أنّي؟ وكيف؟ وقد قَلَّ العدد، وَضَعُفَ الجند، وعزَّ النصير، وانقطع الرجاء في خُذْلاَن المسلمين.

قال ثعلبة بن حاطب ـ وقد استوى في جلْسَته، واعتدل في قعدته ـ: إن هَمّك من بني عَمِّك لهَمٌّ يسير، وخطبٌ هَيِّن؛ إنما الهمُّ الذي يبعث الأحران، ويثُير كامِنَ الأشجان، هذا الدين الذي لا تَخْمدُ جذْوَته، ولا تسكن حركتُه، ولا ينقطع دخولُ الناس فيه، أوَ ما رأيتهم وقد صاح فيهم بِلاَل صيحةً يشقُّ بها صدورهم، ويغزُو مشاعرهم، فإذا هم جميعاً

---

(١) فرع الشيء: طال وعلا، يقال فرع قومه: علاهم وجاهة.

يُهْرَعُون إلى المسجد، وَيَزْدَلِفون إلى ذلك البناء، فيتأكد جَمْعُهم، وتقوى آصِرَتهم، وَتَزْكُو[١] المودَّةُ بينهم؛ فإذا كانوا في يوم تَالٍ، عادُوا ومعهم جَدِيد ممن يدخل في دِينهم، أو يَنْحَدِرُ إلى عقيدتهم؛ إن اجتماع محمد وصحبه على النحو الذي أراه كل يوم لمما يزيدُ النفس حسرة، ويُذِيقها أسفاً وَكَمَداً[٢].

فقام وديعة بن عامر، وقال: دَعْكما مما تُفِيضان من الحسرة، وما تبعثان من هَمٍّ دَفِين؛ لقد جاءني اليوم كتاب من أبي عامر الراهب، وهو مَنْ علمتم كراهيتهُ لمحمد، وحنقَهُ على دِينه، وَهَمّه مِنْ ظهُورِ أمره، قال: إنه من يوم أن ترك المدينة ما زال يسير ويكمن، وَيُنْجد وَيُتْهِم، حتى انتهى بعد طول ما طوّف إلى هِرَقل ملك الروم، فوجده مَلِكاً متعصِّباً للنصرانية، مَغِيظاً مُحْنَقاً مما سمعه عن أمْرِ محمد والمسلمين، ثم حدَّثه بما يَقَعُ لمحمد كل يوم مِنْ فَتْح، وما ينتقلُ فيه من نَصْرٍ إلى نصر... ولقد ذَكَرَ لي ـ فيما كتب ـ أنه قد استنصرهُ فوعدهُ النصر، واستنفرَهُ فمَّناهُ بالنَّفر، وإنه ليُوشِكُ أنْ يعودَ إلى المدينة، ولكنه يلتمس منا أن نهيِّىء له مَعْقِلاً خَفِيًّا، ومكاناً تحت جُنح الظلام، يُدَبِّرُ فيه الكَيد، ويخيط نسيج المَكْر.... فماذا أنتم صانِعُون؟ وبماذا تشيرون..؟

إن عندي لرأياً قد زَوَّرْته[٣] فأحكمتُ تزْوِيرَه، وخطةً دبرتها وأظنني أحسنْتُ تدبيرها؛ فإن شئتم سمعتموها، وإن شئتم رددتموها.

فاستشرف جَمْعُهم إليه، وقالوا: هاتِ ما عندك، وَأتِ على غاية ما في نفسك.

قال: لقد علمتم أنَّ محمداً قد أصبح من القوة بما لا نَسْتَطِيعُ صدَّه، أو القيام في وجهه، وإننا ما استطعنا أنْ نُسَاكِنَهُ في المدينة إلا بفَضْل ما نظهرُهُ من مَلَق، وما نرتديه من ثَوْبِ النِّفاق، وقد رأيتُم كيف كان يَلْحَن[٤] لأمرنا، وَيَتَنَبَّه لغمزات عُيُوننا؛ فهو منّا أبداً على رِيبَة، وهو من أمرنا دائماً في شَكّ.

والرأيُ عندي أنْ نَعمِد إلى مكانٍ فَسِيح نَبْني فيه مسجداً، ونتوهّمه مصلى، ثم نُقيم

(١) زكا الشيء: نما وزاد.
(٢) كمد الرجل: كتم حزنه أو حزن حزناً شديداً.
(٣) زوَّر الشيء: أصلحه وقومه وأتقنه.
(٤) لحن فلان: فطن لحجته وانتبه لها.

له مِنْ بيننا إماماً، ونذهب إلى محمد نَـدْعُوه للصلاة فيه مُـدَاهنين، ونحلف له كاذِبين؛ فإذا ما استجاب إلى دُعَائنا، وَصَدَّقنا في أيماننا، فقد استطعنا أن نفرّق الجماعة، وَنَـصْدَعَ الوحدة، ثم يكون المسجد بعد ذلك في الظلام ملاذاً[١] لأبي عامر، وملجأ لما يريد؛ وها هو ذا مجمع بن جارية منّا، قارىء للقرآن، عارف بالفرائض، نَـدْعُوه لإمامتنا، ونوهِمه حُسْنَ قصدنا، فما عندكم مما رأيت؟!

فكلهم آمنَ برأيه، وأثنى على تدبيره وَحَزْمه، وغَـدَوا يَـضَعُون الأساس، ويُـعِدُّون البناء؛ يَحْدُوهم الرجاء، ويُزَيّن لهم الشيطانُ خوادعَ الآمال، حتى استوى مسجداً قائمَ الجُدْرَان، مَتِين العماد، وَاضِحَ المعالم والحدود. . .

وانصرفوا إلى رسول الله ﷺ، فوجدوه متهيِّئاً لغَزْوِ الروم، قالوا: يا رسول الله، لقد بنينا مسجداً لذي العلةِ والحاجة، والليلة المطيرة والشاتية، ثم لِتُقَامَ فيه الصلاة، وتؤدَّى شعائرُ الله، وقد اخترنا له مجمع بن جارية إماماً، وهو مَنْ عَلمْتَهُ حِفْظاً للقرآن، وعِلماً بالفرائض، وبَصَراً[٢] بما في كتاب الله، وقد دَعَوْنَاك للصلاة فيه، فإنْ فعلتَ فَقدْ نالنا الخَيرُ، وحفّتْ بنا البركة.

قال رسول الله ﷺ: «**إنا على جَنَاح سَفَر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**».

وعاد رسول الله ﷺ من غَزْو الروم، حتى إذا لم يَبْقَ بينه وبين المدينة إلاّ يومان، هبط عليه الروحُ الأمين، مبلغاً عن رب العالمين: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا[٣] وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[٤].

---

(١) الملاذ: الملجأ والحصن.

(٢) بصر بالشيء: علم به فهو بصير.

(٣) ضراراً: مضارة لأهل مسجد قباء.

(٤) سورة: التوبة، الآيات: ١٠٧ ـ ١١٠.

فعرف الرسولُ ﷺ كَيْدَهم، وعلم ما كان وراء معسول كلامِهم، وَمَـذْهُون أمانيهم، وما وصل إلى المدينة حتى بعث رَجُلَـيْن بإحراق المسجد وَتَـقْويضه وَهَـدْمه.

وأصبح مُعتب بن قشير وتلفَّتَ؛ فإذا المسجد قد تَهَدَّم، والبناء قد تقوَّض، فعلم أن الله فضحَ أمْرَهم، وأفشى سرَّهم، وعادَ وَصَحْبه إلى ما كانوا فيه من هَمٍّ وقلق، وَحُزْن وكمد: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

(١) سورة: الأنفال، الآية: ٣٠.

# المباهَلـةِ[1]

قال أبو الحارث أسقف نَـجْرَان لغُـلاَمه: ادْعُ لي الساعة شرحَبيلاً، فما لِما يهمُّني الآنَ من أمْرِ سواه، وكان شرحبيل هذا خازِنَ أسراره، وموضعَ مشورته، وأمينَ ما بين جَوَانحه... وذهب الغلامُ وعاد معه شُرحَبيل.

قال أبو الحارث: دَعَوْتُكَ الساعة يا شرحبيل لأمْرٍ رَاعَني وأفزَعني، ما استطعتُ أن أختزل[2] به، أو أستقلَّ بالرأي فيه: جاءني اليوم كتابٌ من محمد بن عبد اللَّه يدعوني فيه لدينٍ يُسَمِّيه الإسلام، ثم يخيّرني ـ إنْ أَبَـيْتُ ـ بين الْجِزْية أو الحرب! ولا أَكْتُمُك أني دُهشتُ مما يَدْعُو، وَذُعِرْتُ مما يتوعَّد، وَقَلِقْتُ من مصاير الأمور، ولقد حاولتُ أنْ أفْصِل في ذلك برأي، أو أُصيبَ منَ الحقِّ مَـقْطَعاً، فما تَـبَيَنتُ المعالم، ولا اتَّضَحت لي الحدُود؛ فاقْتَدِحْ لي زِنَادَ رَأيك، وَأَشِرْ عَلَيَّ بما عندك.

قال شرحبيل: لستُ في هذا يا مولاي بصاحبِ رَأي، ولو كان أمراً من أمور الدنيا، أو حادثاً مما يجري بين الناس، لرجوتُ أن آخذَ فيه بنصيب، أو أُدليَ برأي... على أنني قد علمتُ ما وعد الله به من النبوَّة في ذرِّية إسماعيل، فما تُؤمِنُ أنْ يكُونَ هذا هو ذاك؟ ولكنني ـ كما حدَّثْـتُك ـ ليس لي في النبوَّة رأي.

قال له أبو الحارث: تَـنَحَّ عني قليلاً، وسألتمسُ الرأي عند سواك.

ودعا إليه آخر من أهْل نَجْرانَ، واستعان به في الرأي، فما زاد على أن صدر عما قال شُرَحبيل، ثم دعا إليه ثالثاً؛ فرمى عن قَوْس الاثنين.

ولما رآهم قد استقاموا في رأيهم على عُمودٍ واحد، أمر بالنواقيس أنْ تُـدَقَّ، والنيران أنْ تُوقَدُ، والمُسوح[3] أنْ تعلَّق في الصوامع، إيذاناً بالدعوة وإعلاناً للائتمار،

---

(١) المباهلة: أن يجتمع القوم ويستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم.

(٢) أختزل به: أنفرد به.

(٣) مُسوح جمع مسح: وهو ثوب الراهب.

وكذلك كانوا يفعلون حينما يَـغُمُّ عليهم الرأي وتُسْتَـعْجمُ الأمور. ونَسَلوا من كل مكان، وَهُرِعُوا من كل صُـقْع، حتى إذا ما اجتمعَ لَـفِيفُهم وتألَّفَ جمعهم، قام الأُسقف وعالنهم بكتاب محمد، وفاوَضهم فيما يفعل؛ فأدارُوا قِدَاح الرأي، وقلّبُوا وجُوهَ الأمر، وانتهَوا إلى أن يذهبَ وَفْـدٌ منهم إلى لقاء محمد، يُحَاجُّونه ويجَادِلُونه، ثم يرجعون بما يَـرَوْنَ.

* * *

وصدر الوَفْدُ عن نجران، يتزعَّمهم شُرحبيل، ولما وَصَلوا إلى المدينة نَضَوا[1] عن أنفسهم ملابسَ السفَرِ، وتلَفّعُوا بالْحَبَرَات وَأَرْدِيةِ الحرير، وَوَضَعوا في أصابعهم الخواتم، وانطلقوا حيثُ يَلْقون الرسول.

ولما اطمأنوا إليه قدموا هداياهم، فلم يرَ بأساً من قبولها، وصَلُّوا صلاتهم فلم يزجُرهم عنها، ثم قال شرحبيل زعيمُهم وصاحبُ كلمتهم: يا محمد، لقد علمت أنَّا نصارى، وليسُرّنا إن كنْتَ نبيًّا أن نسمعَ ما تقول في عيسى.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما عندي فيه شيء يوْمي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقولُ الله في عيسى**».

ولما أصبح الغد نزل عليه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾[2].

فدعاهم وأعلنهم أنْ قد جاء الفَصْلُ في أمر عيسَى من الله، فإن لم يُـذْعِنُوا ولم يعتقدوا فليجتمع المسلمونَ والمحاجُّون من أهل الكتاب في صعيد واحد، رجالاً ونساء وأطفالاً، ثم يَبْتَهِلوا ويَسْتَنزلوا لعنةَ الله على مَنْ كان كاذباً.

فقالوا: دَعْنَا نتشاورُ فيما بيننا، ثم نُفْضي إليك بما ينتهي إليه رَأينَا.

ولما اجتمعوا قال لهم شُرحبيل: لقد عَلِمْتُموني بينكم صادقَ المَنْزَعَة[3]، بعيدَ مراد

(١) نضا الشيء: نزعه وألقاه.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ٥٩ ـ ٦١.

(٣) المنزعة: قوة عزم الرأي والهمة.

الفكر؛ وأنَّ الواديَ إذا اجتمع أعلاهُ وأسفله، لا يَرِدُون إلاّ عن عِلمي ولا يُصَدرون إلا عن رأيي.. إني والله أرَى أمْراً ثقيلاً؛ إن كان هذا الرجل ملِكاً فإنا أدنى العرب منه جِوَاراً، وأقرب منازل، ولا نأمَنُ أن نُصَابَ منه بجائحه[١]، وإن كان نبيا فَلاعَنَّاه[٢] لا يبقى على وجْهِ الأرض مِنَّا شَعْر ولا ظفر إلا هلك...

قالوا له: فما الرأيُ يا أبا مريم؟ قال: رأيي أن نحكمه، فإني أرَى رَجُلاً لا يحكم شَطَطاً[٣] أبداً... قالوا له: أنت وذاك، ودونك وما تريد.. وذهب شُرحبيل إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني رأيتُ خيراً من مُلاَعَنَتك. قال ﷺ: «**وما هو**»؟ قال: حكمك اليوم إلى الليل. وليلتَك إلى الصباح، فما حكمتَ فينا فهو جائز. فقال له النبي ﷺ: «**لعلّ وراءك أحداً يَثْرِب[٤] عليك**»؟ فقال شُرحبيل: سَلْ أصحابي، فإن الواديّ ما يَرِدُ وما يَصْدر إلا عن رأيي...

فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا على أن تَعُودُوا في الغد. وعادوا: فعرض عليهم الإسلامَ فامتنعوا، وعرض عليهم الحربَ فقالوا: ما لنا طاقة، وعرض عليهم الجزيةَ فقالوا: ما تريد؟ فشرط عليهم رسولُ الله أَلْفَي حُلّة: ألف تُؤدَّى في رجب، وألفٌ تؤدّى في صَفَر، على أن يَظَلّ كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لهم، ولهم بعد ذلك جِوَارُ الله ورسوله، لاَ يغيَّرُ أسقف من سقيّفاه، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا بغيّرُ حقٌّ من حقوقهم، ولا يتُحَيَّفُ[٥] شيءٌ من سلطانهم؛ غير مُبْتَلِين بظلم ولا ظالم، ما أصلحوا ونصحوا.

فرأوْهُ حُكماً عَدْلاً، وقولاً فَصْلاً، ورجعوا إلى قوْمهم يَحْمَدُون محمد بنَ عبد اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الجائحة: المصيبة التي تحل بمال الرجل فتجتاحه كله.
(٢) تلاعن القوم: لعن كل واحدٍ الآخر، أثبت كل طرف صدق دعواه بشريعة اللعان.
(٣) شططاً: ظلماً وتجاوزاً للحد.
(٤) يثرب عليك: يلومك.
(٥) تحيف الشيء: أخذ من حافاته وتنقصه.

# المجادلــة

كانت خَوْلةُ بنت ثعلب الخزرجية قد تزوَّجَتْ بأوْس بن الصامت، وهي في مُقْتبَل عمرها ورَيْعَان شبابها، وكانت صبيحةَ الوجه، حَسَنَةَ القَوام، وعاشا معاً عمراً طويلاً، نَعِماً فيه بحياة سعيدة، وعيشة رافِغَة، ثم تقَدَّمت بهما السنون؛ ولكنَّ خَوْلة ما زالت تحتفظ بشيء من فِتنتها وجمالها.

وفي يوم ما قامَتْ تُصَلِّي، ورآها زوجُهَا تَقِفُ في اعتدال وتركع في خشوع وتسجُدُ في أنَاةٍ ورفقٍ، فتَاقَتْ نفسُهُ إليها، فلما سَلّمت داعبها في خِفّةٍ وطِيْشٍ فنفَرَتْ فاستحوذَتْ عليه الدهشة، وتملّكَهُ الغَضَب، وثارت ثائرته، وحَرَّمَها على نفسه كما حُرِّمت عليه أُمّه، فقال لها: أنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمي.

ولما سَألت زوجها عما يَعْنيه بقَوْلته، قال لها: ما أظنُّك إلاّ حَرُمْت عَليَّ! وكان الظِّهَار من أشدّ طلاق الجاهلية، لأنه في التحريم أوْكَد، وفي قَطْعِ الصلة أبين.

فَسُقِط في يدها، وحَارَت في أمرها، وشقَّ عليها أن تَبِين[1] منه وهو أبو ولَدِها، وحَبِيبُ نفسها، ومُؤْنِسُ وحْشَتها، وزَوْجُهَا الذي سكَنَ إليها، وسكنت إليه أعواماً طوالاً.

فذهبت إلى النبي ﷺ تَبُثّه شَجْوَها، وتفضي إليه بما أهمَّهَا؛ علّهَا تَجِدُ عنده مخرجاً من مَأزقها، وتقدَّمت إليه تشكو حالها قائلة له: إنَّ أوْساً قد تزوجني وأنا شابَة مرغوب فيَّ، فبعد أن كبرت سني وكثر أولادي جعلني كأمه، وإنَّ لي منه صبيةً صغاراً، إنْ ضممتُهم إليه ضاعُوا وإن ضممتُهم إليَّ جاعوا. ثم توسَّلت إليه أن يُصلِح ما فسد من أمرها، ويقَوِّم ما تأوَّد[2] من حالها.

وما كان للنبي أنْ يَقْضيَ بأمره، أو ينطقَ عن الهوى؛ فهو رسول الله؛ مَوئله الوحي،

---

(١) بان: بعد وانفصل.

(٢) تأود: أعوج.

ومَرْجِعه السماء، وهو لم يتلقَّ في الأمْر وَحْياً، ولم يعرف لهذا السؤال جواباً، لذلك قال لها: «**ما عِنْدِي في أمرك شيء**».

فازدادت حسرتُها، واشتدَّ حُزْنها، وقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً وإنما هو أَبُو وَلَدِي، وأَحَبُّ الناس إليّ، ترجو بذلك أن تَلِينَ قَنَاتُه لتَضَرُّعاتها، وتأخذَه الرحمةُ بأولادها.

إنّ النبيَّ قد علم حقيقةَ حالها، ووقف على دَخِيلة أمرها، ولكنْ ماذا يفعل، وهو لم يتلقّ بعدُ وَحياً في مثل شأنها؟ وهو الفَيْصَل إذا اختلط الأمر، وادلهمّ[1] الخَطْب، وأظلم الطريق! لذلك أعاد عليها جوابَهَ قائلاً لها: «**ما عندي في أمْرِك شيء**».

فالتجأت إلى مَنْ تَسعُ رحمتُه كل شيء، واتجهت نحو مُرْسِل الوَحْي، ومُبْدِع السماء والأرض، ترجوه أنْ يزيلَ غُمَّتها، ويفرج كُرْبتها، وقالت: أشكو إلى الله فاقَتي ووَجْدي[2].

طال بها الوقوفُ، وأكثرت من التضرع، وكلما قال لها النبيّ: «**ما عندي في أمرك شيء**» جَأرَتْ[3] إلى الله بالدعاء، وهتفت شاكية إليه حالَها، فَفُتِّحت لدعائها أبوابُ السماء وسَمعَ الله شِكَاتها.

فبينما هي في حيرتها واضطرابها ـ ترفَعُ وجهها إلى السماء مرة، وتخفض طَرْفها نحو الرسول أُخرى ـ غَشِيَ النبيّ ما كان يغشاه حين نزولِ الوحي، ثم نطق لسانُه بالذكر الحكيم، وهناك أخبرها بأنَّ الله قد سَمِعَ محاورتها، واستجاب لدعائها، وأنه ليس على المُظاهِر بعد الآن إذا أرادَ التحلّةَ من أيْمانه إلاّ أن يعتِق رَقبة، فإنْ لم يَجِدْ فصِيامُ شهرَيْنِ مُتَتَابِعين، فإنْ لم يستَطِعْ فإطعامُ ستين مسكيناً.

قرَّت عينُها، وعاودَها سكونُها، وانفرجت أسارير وَجْهها، فقد حقق الله رجاءها، وأجاب سُؤلها، فصلُح أمرها، ورُئِب[4] صَدْعُها وها هي ذي سترجح إلى عُشّها، فتطعم

---

(١) ادلهم الليل: اشتد ظلامه.
(٢) وجدي: حزني.
(٣) جأر إلى الله: تضرع واستغاث.
(٤) رأب الإناء: لأمه وأصلحه.

فِرَاخها، وتدبّر شؤون بيتها، وتسكنُ إلى زوجها، وتتصلُ سعادتها، وتعودُ سيرتَها الأولى.

أرسل النبيُّ إلى أوْس، فلما حضر إليه، قال له: «**ما حملكَ على ما صنَعْتَ؟**» قال: إنّ الشيطان لِعب بعَقْلي، وأضاع صَوابي، فركبت مَتْنَ الشَّطط، وأبعدت في الغَيّ، فهل من وسيلة أسترجِعُ بها شريكةَ حياتي ومُنْية نفسي؟

قال النبي ﷺ: «**نعم**» وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾[1]

ثم قال له النبي: «**هل تستطيعُ عِتْقَ رقبة؟**» فقال: لا والله، فقال: «**هل تستطيعُ الصَّوْمَ**»؟ فقال: لا والله، لولا أني آكُلُ في اليوم مرةً أو مرتين لَكلَّ[2] بَصَري، ولظننت أني أموت. فقال له: «**هل تستطيعُ أن تُطعِم ستين مسكيناً**»؟ فقال: لا، إلا أن تُعِينني منك بصدقة.

فمدَّ النبي إليه يَدَ المساعدة حتى استطاع أن يُطعِمُ ستين مسكيناً، وبذلك صارت زوُجه حلالاً له، وجعل الله للمسلمين وسيلةً للتحلُّل من هذه العادة الجاهلية؛ وهكذا سار ضوءُ الإسلام في تلك الأرجاء المظلمة، يُنير جوانبَها، ويبدِّدُ سحُبَ الضلالِ في أنحائها، ويحسِّنُ ما استهجن من أخلاقِ أهلها؛ فطهَّرت مبادئه أرجاسهم، وقامت على أسُسِه المتينةِ صروحُ حياتهم، وضرب مثلاً واضحاً في يُسْر الإسلام وسَمَاحته، ورَفْع الحَرَج والمشقّة، وتيسير الأحكام فجعلهم بذلك مُثُلاً عليا، وأسوةً تُحْتَذَى، إنّ الله بالناسِ لرَؤُوفٌ رَحيم.

---

(١) سورة: المجادلة، الآيات ١ ـ ٤.

(٢) كَلَّ: ضعف.

# التحريـــم

التقت عند رسول الله ﷺ محاطّ العظمة، واشتبكت لديه وشائج القُرْبى من الله والحظوى في الدنيا والآخرة، وتطلّعَتْ إليه أنظارُ الخليقة أجمعين، يتَنَسَّمُونَ أريجاً من شَذَاهُ، ويَرْمُقُونَ زهرة من جَنَاهُ، فهو ملء السمع والبصر، ومَحّط العين والفؤاد.

وكان من أشدّ الناس التصاقاً بالنبي عليه الصلاة والسلام، وتزاحُماً على حَوْضِه، وتنافساً إلى حِمَاه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

وليس بِدْعاً أنْ تسلكَ إلى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقاربُ الغيرَةِ حُبًّا فيه، وأثرةً عليه، فتدبّ دبيباً خفيفاً، وتَسْرِي إلى الفؤاد، فتورِي فيه ناراً لا ينطفىءُ لظَاهَا إلا بالقُرْب من نبي الله الكريم.

أَلَسْنَ من النساء اللاتي غلبتهُنَّ قوةُ العاطفة، وتملكَتْهُنَّ دوَافعُ الغَيرة والأثَرة في كل عصر وزمان؟

أوَليست قلوبُهنَّ تَصْبُو، ونفوسهن تحْنُو، وآمالهنَّ تتدافَعُ؛ ورجاؤهن يفيضُ لخير الناس أجمعين!!

كان النبيُّ الكريم يفيضُ قلبهُ بعاطفة الأبوة، وتحنو نَفْسُه إلى بنته زينب، فإذا رآها أنِسَ بها، واطمَانّ إليها، وانشرح صدرهُ، لأنها ثمرةُ نفسه وحُبّه حتى إذا أفلَ نجْمُهَا. فذهبت إلى جوار رَبِّهَا، استوحش إليها، وامتدّتْ آماله إلى الولد ليمسحَ عن قلبهِ انقباضَ الوَحْدَةِ وأثرَ الفاجعة.

وما زال الرسول الكريم في وَحْشَتِه وانقباضه، يدفَعُه شوقٌ أن يَكْتَحِل بسَنَا نورِ ابن كريم، وهو في حَنينه وَوَحْشَتِهِ تدبُّ في قلبه حسرة وأسى؛ لأنهُ شارفَ الستين من عمره، وأَوْشَكَ مصبَاحُ حياته أنْ ينطفىء! فما هو ببالغ أملاً يَشِيمهُ كلُّ والد، ولا يتنفسُ بُروح يتنَسَّمُهُ كلُّ أبٍ يفيضُ قلبُه بالعطف والحنان.

* * *

وحُملت إلى النبيِّ الكريم من المقوقس والي مصر هَدَايا، ومن بينها مارية القبطية، فقبلها النبيُّ، وأنزلها منزلة السراري، ولم يهبها ما وهَبَ لأزواجه، فلم يخصِّصُ لها منزلاً بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين؛ بل أنزلها بالْعَالية[١] من ضَوَاحي المدينة، في منزل يُحِيطُ به الكَرْم والزَّرْعَ والنَّخِيل.

وظلَّ الرسولُ العظيم يختلفُ إليها، ولها منهُ ما يحلُّ للرجل فيمَنْ ملكت يمينه، حتى إذا حَمَلت ماريةُ، وولَدت إبراهيم، تَفَجَّرت ينابيعُ البشر والسرور في قلب أبيه، وأنِسَتْ نَفْسُ الوالد عطفاً ورحمةً وحناناً بولده الأغرّ الميمون، وارتفعت مكانةُ مارية، فصارَتْ إلى مصافّ الزوجاتِ المقرَّبَاتِ، وازدادت بذلك حُظْوَةً عنده، ومكانةً ملأت قلبها بالمسَرَّةِ، وانقلبَتْ إلى ربها بالشكْران والتسبيح.

وكان رسول الله ﷺ حَفِيًّا بولده، قرير العين به، رضيَ النفس لهُ، مطمئن الفؤادِ لمولده، فصارَ يختلفُ إلى منزِل مارية، يُطلعُ كلَّ يوم في أفقه مشرقَ هذا الغلام، وينعم بابتسامته البريئة الطاهرة، ويفيضُ عليه كثيراً من حَنَانِ الأبوَّة، وطهارةِ النبوّةِ، ويغمُرُهُ بهذا الفَيْضِ الإلٰهي العميم.

وقد حمله يوماً بين ذِرَاعيه إلى عائشة، فَنَفِسَتْ عليه[٢]، وحجبتها الغيرةُ أنْ تهِشّ وتبشَّ للغلام الكريم.

كذلك كانت الأثرَة والغَيْرَة تدبُّ في قلوب نساء النبي، كلما رأين منه إقبالاً على مارية، وحُبًّا وتعلقاً بولدها.

وكان الرسولُ الكريم يَخصُّ نساءَهُ بمكانة مُحْترمة، وينْزِلهنّ منزِلاً عزيزاً، وينفحهنّ أبداً بعطف وإجلال وتكْريم، على غير عادة العرب في الجاهلية، فلما رأينه يفيض عليهنَّ من عظمته وكرمه، جنحتْ[٣] نفوسهُنَّ، فتغالَيْنَ في الاستمتاع بحريتهنّ، واتّخَذْنَ من بعض الحوادث مَسْلَكاً إلى إغضابِ الرسول.

* * *

(١) العالية: اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمايرها إلى تهامة فهي العالية.
(٢) نَفِست عليه: ضنت عليه.
(٣) جنحت: مالت.

كان رسولُ الله ﷺ في بيتِ حَفْصة، فاستأذنتهُ أن تذهب إلى أبيها، فأذِنَ لها، وفي غضون غيبتها جاءت مارية، فأقامت مع النبي عليه الصلاة والسلام زمناً؛ فلما حضرت حَفْصة، رأت مارية في بيتها، فانتظرت خروجَها، وقلبها يشتعلُ وَجْداً وغَيْرَة. . . ولما خرجت مارية دخلت حفصةُ على النبيّ، فقالت: لقد رأيتُ مَنْ كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت تَصْنَعُها لولا هواني عليك!

وأدرك رسول الله ﷺ أن الغيْرَة قد تدفعُ حفصة إلى إذاعة ما رأت، والتحدث به إلى غيرِها من الأزواج؛ وفي ذلك ما فيه من إثارة لغيرتهن وتحريك لحفيظتهنّ؛ فأراد إرضاءها فحلف لها أنَّ مارية حرامٌ عليه إذا هيَ لم تذكُرْ مما رأت شيئاً؛ فوعدته أنْ تكُفَّ عن إذَاعة ما كان.

ولكن الطبيعة النسوية كانت أقْوَى جماحاً، إذ تحركت الغَيْرَةُ تأكلُ صَدْرَهَا، فلم تُطِقْ كِتمانَ ما وعَدَتْ بكتمانه؛ فأسَرّته إلى عائشة، وذاعَ الأمرُ بين نساء النبيِّ كلهن.

فأكثَرْنَ من الحديث في شأنه والجدل في أمره؛ والنبيُّ الكريمُ ليس خليًّا لهذا النوع من اللّجاج والغَيْرَة؛ فأراد أنْ يُلْقِي عليهنَّ دَرْساً ليكُونَ عِبْرَة لهن وتذكرة.

عزمَ النبيُّ أن ينقطع عن نسائه شهراً كاملاً؛ تأديباً ورَدْعاً لهن عما تمَادَين فيه من ائتمارٍ به؛ ولُيخَفِّفَ فيهنَّ عواملَ تلك الغيرةِ الحمقاء.

فأدَّى به عَزْمُه أنْ ذهبَ إلى خزانة له؛ يَرْقى إليها على جِذْع من نخل، وليس بها من فراش إلا حَصِير جافّ خشن؛ وحسبه هناكَ لُقَيْمَاتٌ من شَعِير يُقِمْنَ صُلْبَه. . ثم هو يُجْلِسُ غلامه رَبَاحاً على سُدَّتها[1]؛ دَفْعاً للحاجة الزائرين.

والرسولُ ﷺ في خَلْوَته يَتّجه بتفكيره إلى ربه: ويُدَبر أمر المسلمين في الجزيرة؛ وفيما وراء الجزيرة، والمسلمون في همّ مُقِيمِ مُقْعِد وشغلهم الشاغل انقطاعُ النبيّ في خَلْوَته؛ حتى لقد شاع بينهم أنه طلق حَفْصة بنت عمر؛ بعد أن كان من إفشائها ما وعدت بكتمانه؛ أو أنه مطلق نساءه جميعاً.

كانوا يَهْمِسونَ بهذا والحسرةُ تملأ قلوبهم، والهمُّ يَقُضُّ مَضَاجِعهم، وقد أقامَ الناسُ

(١) السدة: باب الدار.

بالمسجد يعبثون بالحصى، ويُجِيلونَ العيونَ زائغة، لا تَسْتَقِرّ على حالٍ من القلق.

وبينما هُمْ كذلك إذ يَنْتَفِضُ عمر رضي الله عنه قائماً من بينهم، فَيَقْصدُ إلى مقام النبيِّ، ويستأذنُ غلامَه رباحاً، فإذا دخلَ الغلامُ إلى سيدهِ رَجعَ إلى عمر، وَوَقف فلم يُجِبْ، فيرفع ابن الخطاب صوته بالاستئذان والإلحاح، فيؤذَن له، فإذا هو بين يدي الرسول، ثم يُجيل بصره في الحجرة ويَبْكي، والنبيُّ يقول له: «**ما يبكيك يا بن الخطاب**»؟ فيذكر للنبيِّ سبب بكائه؛ فيردّه النبيّ إلى الصواب بقول رفيق كريم.

ثم قال عمر: يا رسولَ الله: ما يشقُّ عليكَ من أمرِ النساء؟! إن كنتَ طلقتهُنَّ فإنَّ الله معكَ وملائكَته، وجبريلَ، ومِيكَالَ، وعمر، وأبا بكر، والمؤمنين أجمعين...

ثم يقبل عمر رضي الله عنه على النبيِّ ﷺ فيحدثه بحديثٍ يُسَرِّي عن نفسه ويُضْحِكه.

فلما آنَس عمر منه ذلك ذكر له خَبَرَ المسلمين بالمسجد، وكلامهم وآلامهم، ورجا النبيَّ أن يُفْضي إليه بالقول الفَصْـل في أمر نسائه. فذكر له رسول الله ﷺ أنه لم يطلقهنَّ.

حينئذٍ نزلَ عمر إلى المسجد، ونادى بأعلى صوته: إنَّ النبيّ لم يطلق نساءَهُ، فاستبشَرَ الناسُ، وسَرَتْ إلى قلوبهم الطمأنينة، واهْتَزُّوا هِزَّةَ الفرح والسُّرور. وإذا النبيّ ﷺ مقبلٌ على نسائه تائباتٍ بين يديه عابدات، حتى نزل الرُّوح الأمين يحملُ رسالة الله الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة: التحريم، الآيات: ١ ـ ٥.

# زينب بنت جحش

هذا زَيْدُ بن حارثة، وقد وَهَبْتُكه يا محمد عَبْداً لك مُطيعاً، ووَفِيًّا أميناً؛ فشكر النبيُّ الكريمُ زوجته خديجة، وَقَبِل منها هديتَها مسروراً، وعاش زيد رضيًّا بصُحْبة رسول الله ﷺ، موفَّقاً في خدمته.

وبعد حين حضر إلى مكة وَفْدٌ من بني حارثة، يطلبون شراء ابنهم زيد وَفِدْيَتهُ لتحريره من رِقِّهِ، ففاض سخاءُ النبي العربي، وقال لهم: «**إن اختاركم فخذُوه من غير ثمن**».

ولما جيء بزيد أنْعم الله عليه، فاختار الرِّق مع النبيّ على الحرية بين قومه، وصار بعد ذلك يُدْعَى زيْد بن محمد تعظيماً له وتكريماً.

بلغ الفتى أشُدَّه واستوى، فرغب سيِّدُه أن يُزَوِّجه كريمةً من كرائم العرب، لتكُونَ له في الحياة سَنَداً وظهيراً.

ويبالغ النبيُّ في تكريم زيد، فيتقدَّم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، فيخطبها لمولاه، مكافأة له، ودليلاً على رِضَاه.

ولكن عبد اللَّه بن جحش يَأبَى ويأنَفُ أنْ يزوجَ زَيْداً؛ لأنه من غير الصُّرَحاء[1]، وتشاركه أخته زينب إباءَه وأنفَته، ضنًّا بنَسَبها العربيّ الكريم.

ولكن ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2] فلا يصحّ لرجل ولا امرأة اختيارُ أمْرٍ من الأمور يخالفُ ما قضاه الله، ثم بلَّغه الرسولُ.

---

(١) صرحاء: جمع صريح: وهو الذي خلص مما يشوبه.

(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٦.

إذَنْ فليَرْضَ عبد اللَّه، ولتخْضَعْ زينبُ لقضاء الله ورسوله، وليسعدا بزَوَاج يخلِّدُ الله شأنَهُ في كتابه الكريم.

* * *

عاش زيد وزينب معيشة زوجين هانئين بما وَفّقهما الله الكريم، وأرْخَى لهما من حِبَال السعادة، ورفّه لهما في العيش، وَمَدّ من أسباب الرخاء.

وبعد حين أراد الله أن تقعَ الوَاقعة، سنًّا للشرائع، وإيضاحاً لأمور الدِّين، وتبياناً للعالمين، وتصحيحاً لأوهام الناس.

وهل يقدِم على مخالفة مألوف العرب، وتحطيم أغلالهم، وَنَبْذِ خُرَافاتهم إلا رجلٌ مَلك الإيمانُ نفسَه، وملأ الحقُّ قلبه، وخالطت الجرأة منه العَصَب والدم، والمسامعَ والأطراف، وتغلغلت الشجاعةُ الخلقية فوصلت منه إلى اللُّبِّ والشِّغَاف؟ وهل يسمو بَشَر إلى تلك المنزلة سُمُوَّ النبيّ الكريم؟

وبعد حين من الدهر، وَهَتِ[1] الرابطةُ بين زيد وزَوْجه، وفترت تلك العلاقةُ التي تجمع بينهما زوجين مُؤْتلفين، فيتقدم زيد إلى رسول الله ﷺ شاكياً، يستشيره في طلاقِ زينب، فيتجلّى عَطْفُ الرسول وَنُبْله قائلاً: «**يا زيد، هذه زينبُ يَسَّرَ الله لك زواجَها بعد عُسْر، وسهَّله بعد امتناع، وعسى أن يَصْلُحَ حالُهَا لك بعد؛ فأمْسِكْها عليك، واتَّقِ الله لئلا تَصِمَها[2] بأنها لا تحسن عشرة الأزواج، وَتُبْ إلى رشدك، فلا تَنْقُض أمراً أبْرَمْتُه[3] ولم يتمّ إلا بعد أنْ نزل فيه قرآنٌ من المدبِّر الحكيم**».

يقول الرسول العظيم قَوْلَه هذا، ونفسُه تَفيض حناناً وعطفاً وإشفاقاً، لما كان قد سبق في عِلْم الله: من أنَّ زيداً يطلِّقُ زينب ثم تتزوَّج النبيّ ﷺ من بعده.

واستمرَّ الرسولُ ﷺ متضَرِّعاً بينه وبين نفسه إلى الله، مُبْتَهلاً إلى رحمته، عسى أن يمحوَ الله ما أثبت، فيصلح الحال بين المرءِ وزوجه، وينقض أمراً سبق أنْ أبْرَمه استكمالاً لأسباب التشريع.

---

(١) وهت: ضعفت.

(٢) وصم يصم: عاب.

(٣) أبرم الأمر: أحكمه.

فاضت نفسُ الرسول ﷺ بالنُّصْح لزيد، وبالضراعة إلى الله، أمَلاً أنْ يَنْقُضَ الله ما أبرم، وأن يَمْحُوَ ما أثبت، ولكن أبى الله إلا أنْ يُتمَّ قضاؤه، فأوحى الله إلى رسوله ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[١].

وكان النبيّ ﷺ يُخْفِي قضاء الله، عسى أن تنْفَعَ فيه شفاعتُه، ويخَشى الناسَ أنْ يضلّوا بسببِ اعتراضهم عَلَى أمْرٍ لم يَألَفوهُ، وتشريعٍ ما تَعَوَّدُوهُ، ولكن مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلّ لهُ ومَنْ يضلل الله فما له من هاد، والله أحقُّ بالخشية والرِّعاية من سِوَاه؛ لأن مألوفَ الناس وعاداتهم ليست أصلاً لتشريع، ولا أساساً لقانون، والنبيُّ ﷺ أولى مَنْ يهدم العقائد الفاسدة، ويقَوِّضُ الخرافاتِ السائدة، فيقيم بعدها صَرْحاً من الحق، ومناراً للشريعة السَّمحة.

انقضت عدةُ زينب بعد طَلاَقها من زَيْد، ثم هيَّأ الله زواجَها من النبي الكريم، وكانت زينب فَخُوراً، تتِيه دَلاَلاً، وتمتلىء عجباً، فتقول لسائر نساء النبي: إن الله تولى تَزْويجي، أما أنتنَّ فتولى تزويجكن أولياؤكنَّ.

ولقد كانت هذه الحادثُة أمراً خرق مألوفَ العرب، وغَيَّرَ وجهةَ أحوالهم ومعتقداتهم، فقد ادَّعوا للدّعيّ ما للابن من الحقوق، من إرْثٍ ونَسَب، وقد تسلَّط ذلك الاعتقادُ على نفوسهم، ورسخ في أذهانهم، وعسر عليهم أن يخلعوا عنهم رِبقْته[٢]، أو أن يُزيلوا عن أفكارهم وَطْأته، فتقدم النبيُّ الكريم بآيةٍ واضحة، وحجة قاطعة، فقام بما قام مع قيام هذه العادة، وتُمَكّنها من الناس؛ وَمَنْ أولى بذلك غير رسول الشريعة الحنيفية، وهو الذي نادى بحرمة رِبا الجاهلية، وأول رِباً وَضعهُ رِبَا عَمّه العباس، حتى يرى الناسُ صنيعَه بأقرب الناس إليه، فتنقطع وَسَاوِسُ الشيطان من صدورهم.

ولقد كانت قصةُ زيد وزينب مثَاراً لأقوالٍ وشبهاتٍ، جرفَتْ كثيراً من الناس، ممن زَاغ بهم الباطلُ، وَرَان[٣] على قلوبهم حَلَك الضَّلال؛ فنسبوا إلى النبي ﷺ أنه اشتهى

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٧.
(٢) الربقة: واحدة الربق وهو الحبل ذو العرى.
(٣) ران على قلوبهم: غلب عليها وغطاها.

زَينب بعد زواجها من زَيْد، وما كان محمد ليمكّن لميوله، ويُمَهِّدَ لِهَوَاه بما يخالف أمرَ ربّه، تسامَى قَدْرُ الرسول وتعالَى علوًّا كبيراً.

أما كانت زينب أمامه بِكْراً تحت سَمْعه وبصره وهو في سنّ الأربعين، زمن اكتمال الفتوة والشباب؟ أفبعدَ ثلاث عشرة سنة، وبعدَ أنْ زالت عنها نَضْرَة البكارة، وهدأت فيه ثورة الشباب، ينظرُ إليها نظرَ التشهي؟ ألم يكن له من شواغل الدِّين والفَتْح شاغل عن أمور النساء، وهو هو ابنُ السادة الكرام الموصوفين:

قـوم إذا حَـارَبُـوا شـدُّوا مـآزرَهـم دون النسـاء ولـو بَـاتَـتْ بـأطهـارِ

وهو النبيُّ الكريم الذي نهاه رَبُّه أن يمدَّ عينيه إلى ما متّع الله به الناس من زَهْرَةِ الحياة الدنيا.

بل نرجعُ إلى الفطرة الأولى للرجل العربي، الذي لم تعْصِمْهُ النبوة، ولم تزينه رَجاحةُ العقل، وسموّ المعرفة، وصِدْق العزيمة، فنراه يغض الطَّرْفَ عن جارته، فهذا عنترة الجاهلي يقول:

وَأغُضُّ طَرْفِيَ إن بَدَتْ لِيَ جَارَتي حتـى يُـوَارِي جَـارَتـي مَـأوَاهـا

بل هو هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1].

(١) سورة: القلم، الآية: ٤.